

اللغة بوصفها « إيقاعاً » فيعرفون متى يجمعون الأنغام ، ومتى يفردونها على تتابع . وهؤلاء يستطيعون أن يولدوا آفاقاً من ضروب التأثير الرائعة المختلفة عن طريق تنسيق الأصوات والصور ، والتدرج بالعاطفة ، والانتقالات اللفظية المفاجئة . ونجد أمثلة لهذا الفن في خطابه « شيشيرون » وفي شعر الحكم ، وفي القصائد الغنائية والمرثيات .

وأما السيكولوجيون فهم لا يولدون تأثيرهم عن طريق ما في اللغة من كمال ذاتي ، وإنما عن طريق تكيفهم اللغة للموضوعات تكيفاً دقيقاً .. والشعراء المسرحيون هم خير مثل لذلك النوع الآخر من الشعراء .

ولم يستطع هذا التقسيم كما رأينا أن يحجب تلك الحقيقة ، حقيقة أهمية اللغة ، والدور الذي تؤديه في التأثير في أعمال هاتين الطبقتين ، وفي كل لون من ألوان الشعر وألوان النثر على السواء .. والكاتب نفسه يؤكد هذه الحقيقة في قوله « إننا مهما حاولنا أن نجعل لغتنا شفافة ، تخلو ألفاظها من التأثيرات الذاتية ، ومهما حاولنا ألا نهتم إلا بما فيها من قدرة على التعبير ، فإننا لن نستطيع أن نتجنب ما في هذه الوسيلة الخاصة من قصور . فطبيعة اللغة التي يستعملها المرء ، ومدى براعته فيها ، لها أهمية كبرى في تحديد القيمة الجمالية لنتاجه . فمهما كانت قوة ملاحظاته وعمق تفكيره وإحساسه فلا مندوحة عن أن يشين هذه الأشياء جميعاً بأسلوب الرديء ، وأن يزيد في تأثيرها بأسلوب الجيد . واللغات على اختلافها ، وبما فيها من قيم جمالية ذاتية ، تبدأ بأصوات حروفها ذاتها ، وبطريقة نطقها ، وبالصفات المميزة لإيقاعها » .

وهذا التفاعل بين الشكل والمضمون في الإفادة أو في إحداث التأثير ، يبرز ظاهرة التكامل بين اللغة والتفكير ، ويكاد يكون رأياً عاماً بين جمهرة النقاد والمفكرين ، فليس فيهم كما رأينا من يفصل بين هذين العنصرين ، أو يتصور أن للأسلوب استقلالاً في التأثير عن المعاني ، أو أن للمعاني استقلالاً في التأثير دون اللغة ، وليس فيهم كذلك من ينكر فضل الإطار في تأدية المضمون ، وفي توضيح المعاني وتقويتها وتجميلها . والأديب الحاذق هو الذي أوتي قدرة على اللغة وتمكناً منها يوازي قدرته على تأليف الأفكار ، وتصوير التجارب ، وفي هذا يقول « لاسل أبركرمبي » إنه لا بد للتجارب الحادة القوية من اهتمام وعناية لا يقلان عنها حدة وقوة ، ومن الممكن أن نصف التجربة التي لها مثل هذه السيطرة والهيمنة على نفس الفنان بأنها « الإلهام » الذي يسبب القطيعة الفنية ..